مجلة مآلات

عدد خاص بمؤتمر فقه الهجر جامعة النور الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية بأمريكا الشمالية
بشراكة مع مركز ابن العربي بفلسطين وماستر قضايا المجتمع بين الفقه والقانون المغرب (2026)

Date of Manuscript Receipt: 01/01/2026
Date of Acceptance Notification: 10/02/2026

تاريخ الاستلام : 2026/01/01
تاريخ رد القبول : 2026/02/10

الاستعراب والتلاقح الثقافيّ (تصوّرات في جدليّة اللّغة والدّين)

Arabization and Cultural Interculturality

(Perceptions of the Dialectic of Language and Religion)

د. منى بشير طرشة،

كلية الآداب، جامعة حلب.

ملخص:

لا شكّ في أنّ اللغة العربيّة تركت بصمة في اللغات الأجنبيّة الأخرى، وفي الفكر العالميّ، ولا سيّما في الدراسات اللغويّة المتعمّقة في فهم الثقافة العربيّة، وتلقّي المباحث الغنيّة للإرث الحضاريّ الإسلاميّ العظيم. ومن الطبيعيّ أن يخلق هذا التلاقح الثقافي بيئة خصبة لتنوّع الموضوعات والوسائل والرؤى تبعًا لتعدّد التصوّرات والتحليلات الخاصة بالباحثين على تنوّع مشاربهم. وفي هذا الصدد يتناول بحثنا الحاليّ ظاهرة الاستعراب، فيُعنى بإشكاليّة مهمّة، وهي إبراز التقارب والتلاقح الثقافيّ الذي يربط العالم العربيّ بالغير، ولا سيّما بعد استحداث ما يسمّى بالاستعراب الذي يدّعي الانقلاب على الحركة الاستشراقيّة القديمة، من أجل دراسة الثقافة الإسلاميّة بعيدًا عن المآرب الاستعماريّة، وذلك بالتركيز على مقوّم اللغة العربيّة (الحامل الأول للإرث الإسلاميّ)، ويُعنَى البحث كذلك بالمحمولات الفكريّة المتعدّدة التي أضافتها الرؤية المغايرة للرؤية العربيّة من خلال عرض ستّ محاور يُبسَط فيها الكلام على جدليّات اللغة والدين المنضوية تحت ظاهرة الاستعراب، فيستقرئ البحث بمنهجه الاستقرائيّ التحليليّ الأمثلة في سياقاتها المختلفة، ويخلص إلى أن التفاعل مع الحركة الاستعرابيّة يجب أن يقوم على وعيٍ نقديٍّ يفصِل بين الاستفادة العلميّة والنقد البنّاء من جهة، والانتهاء أو الرفض المطلق من جهة أخرى. كما يوصي بأهميّة تطوير مناهج تدريس علوم العربية والشرعيّة في الغرب بما يراعي الأصالة والانفتاح المعرفيّ في آنٍ واحدٍ.

الكلمات المفتاحية: الاستعراب، التلاقح الثقافيّ، تصوّرات، جدلية اللغة والدين، الغرب، العرب.

Abstract:

There is no doubt that the Arabic language has left its mark on other foreign languages and on global thought, especially in linguistic studies that delve into understanding Arab culture and receiving the rich research of the great Islamic civilizational heritage. Naturally, this cultural exchange creates a fertile environment for a diversity of topics, methods, and perspectives, reflecting the multiplicity of viewpoints and analyses offered by researchers from diverse backgrounds. In this context, our current research addresses the phenomenon of Arabization, focusing on a crucial issue: highlighting the cultural convergence and exchange that connects the Arab world with other cultures Especially after the introduction of what is called Arabism, which claims to be a revolution against the old Orientalist movement, in order to study Islamic culture away from colonial aims, by focusing on the component of the Arabic language (the primary carrier of the Islamic heritage). The research also deals with the multiple intellectual implications added by the alternative vision to the Arab vision, through presenting six axes in which the debate on the dialectics of language and religion included under the phenomenon of Arabization is discussed. The research, with its inductive analytical method, examines examples in their different contexts. He concludes that engagement with the Arabist movement must be based on a critical awareness that distinguishes between scholarly benefit and constructive criticism on the one hand, and outright rejection or dismissal on the other. He also recommends the importance of developing curricula for teaching Arabic and Islamic studies in the West that simultaneously respect authenticity and intellectual openness.

Keywords: Arabization, cultural cross-pollination, perceptions, dialectic of language and religion, the West, Arabs.

ملف الصحافة رقم: 04/2023 ص
3009-5131 : ISSN
السنة : 2026

المقدمة:

الاستعراب قضية من قضايا المهجر، وهو اهتمام الغرب بالعالم العربيّ، ويتجلّى في الدراسات الاستشراقية التي تناولت اللغة العربية، والقرآن والفقه وغيرها من المعارف الشرعية. وفي هذا الصدد يُعنى بحثنا بإبراز التقارب والترابط الثقافي الذي يربط العالم العربي بالغير، ولا سيّما بعد استحداث ما يسمى بالاستعراب الذي يدّعي الانقلاب على الحركة الاستشراقية القديمة، من أجل دراسة الثقافة الإسلامية بتركيزه على اللغة العربية الحامل الأول للإرث الإسلامي بعيدًا عن المآرب الاستعمارية، ويُعنَى كذلك بالمحمولات الفكرية المتعددة التي أضافتها الرؤية المغايرة للرؤية العربية، وبأثر هذا التلاحم المعرفي في تشكيل التصورات عن العلوم العربية والعلوم الشرعية. وذلك من خلال عرضه لمحاور ستة نستعرض من خلالها الجدليات الست التي تبلورت من خلالها ظاهرة الاستعراب، **وهي: 1**- كونية الحرف القرآني. 2- المنهج اللغوي (الفيلولوجي) المطور وقراءة النص الديني. 3- توظيف المناهج الغربية في النص الديني القرآني المقدّس. 4- اللغة وتشويه التراث الإسلامي. 5- التعليم والتلقيّ الغربي لصورة العرب والمسلمين. 6-الإعلام وطمس الهوية الإسلامية بتغييب اللغة العربية.

إشكالية: لا جرم بأنّ اشتداد غلواء العولمة الثقافية والفكرية والتي شهدت منعطفًا حادًّا في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م) يوجب على النخب الإسلامية بذل مزيد من الجهود في سبيل استيعاب ومواكبة الموقف الغربي من واقع المجتمعات والحركات الإسلامية، وأن ينفّر طائفة من فضلاء الباحثين إلى تفكيك وتحليل الدراسات الغربية التي تناقش شؤوننا، وتبحث في قضايانا المعاصرة، بغرض الاستفادة منها، وتعميق الوعي بالسياسات الغربية، ونقدها وفقًا لمنظورات الشرع والواقع. وهذا يتطلب ابتداءً تحديد التساؤل: ما التصورات الأساسية الدافعة للحركة الاستعرابية في العالم الغربي؟ وما الجوانب الإيجابية والسلبية في جدليات الفكر الاستعرابيّ؟ وما التوصيّات المستوجَبة في هذا الإطار؟

أهداف البحث: تهدف دراسة جدليات اللغة والدين إلى فهم أعمق للعلاقة بين اللغة والدين وأثرها في الفرد والمجتمع، وتطوير خطاب ديني أكثر وعيًا وواقعية، والمساهمة في الحوار بين الثقافات والأديان، وتنمية الوعي بأهمية اللغة ودورها في بناء الهوية.

المنهج: وحسبنا في هذا البحث أنّنا بنيناه على المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يجمع بين الاستقراء والتحليل في آن واحد، إذ نبدأ بملاحظة وتحليل تفصيلي لظاهرة الاستعراب، ثم نعمم هذه الملحوظات والتحليلات للوصول إلى استنتاجات أوسع.

بداية نتكلم على ظاهرة الاستعراب؟

فالاستعراب أو ما يُدعى بالاستشراق الجديد «هو طلب اللّغة العربيّة وعلومها والاهتمام بما أنجز باللّغة العربيّة؛ أي: بدراسة اللّغة العربيّة بنقلها من مظهرها الماديّ إلى وعائها الفكريّ، وينطبق هذا على المسلمين من غير العرب، وغير العرب الذين ينتمون إلى ديانات أخرى غير الإسلام، ولم تعد حكرًا على المبادرات الأوروبيّة، ولا سيّما مع تنامي الحركات المنادية بتجاوز التطرّف والهيمنة الغربيّة، ودعوتها لحوار الحضارات. كما ساهم في ذلك ما يسمّى حاليًا بموت الإيدولوجيا، وظهور مفهومات الهُوّيات الإقليميّة المطالبة بالحقوق الإنسانيّة»[1].

فالاستعراب، على أيّة حال، يشير إلى مجمل الإنتاج العلميّ الغربيّ الذي يعتمد مناهج العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الحديثة وطرائقها في دراسة شؤون الإسلام والمسلمين. وفي هذا المقام يحسن أن نوضّح أبعاد التغيّر الذي دخل على الحقل الاستشراقيّ القديم حتى تبلور في الحالة الاستشراقية الجديدة، وذلك من خلال مستويَين أساسيّيَن:

١ - **مستوى المنهج العلميّ:** فبعد أن كان تأهيل المستشرق يتمحور حول التهيئة اللغويّة (الفيلولوجيّة) بإتقان لغة شرقيّة تمكّنه من التعامل المباشر مع المصادر في تلك اللّغة، أصبح الراغب في دراسة الشرق والإسلام لا يهتمّ كثيراً بأمر اللغة، وإنّما ينخرط في دراسة متخصّصة، لعلم الاقتصاد، أو علم الاجتماع، أو الأنثربولوجيا، أو العلوم السياسيّة، أو غيرها من العلوم الإنسانيّة، ويطبّق مناهجها المختصّة وأدواتها التفسيريّة والتحليليّة على موضوع البحث، وقد تكاثرت عمومًا الدراسات غير الأحداثيّة الوقائعية، والتي تمثل الطابع السوسيولوجي تقريباً، والتي تركز على جمع الحقائق وتوثيقها لتصوير أحوال مجتمع أو ظاهرة معينة في سياقها الطبيعي، دون الالتزام بفرضية حتمية أو تعميم النتائج، بل الهدف هو فهم أعمق للظاهرة (كالبحوث الكيفيّة)، فعند متابعة العمل في المناهج القديمة (في فقه اللغة المقارن

[1] - ماضي، نوال، حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية، قراءة في تجارب عالمية رائدة، جامعة جيجل الجزائر، ورقة بحثية مقدّمة للمشاركة في المؤتمر الدَّولي الثالث للغة العربية (الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي، دبي، 2014م، صفحة 5.

(الفيلولوجيا) وعلوم اللّاهوت بالذات) يحرِص الباحثون على تجاوز الاتّجاهات التقليديّة، والتفاعل مع التحديثات الجديدة لها، مثل: إدخال تطبيقات جديدة في ميدان دراسة الفكر والروح الدينيّة وتحليلهما، كبحوث الظاهراتية (الفينومينولوجيا) عند (وارد نبرغ) الّتي تهدف إلى دراسة الوعي والخبرة المعيشيّة كما تظهر مباشرة، مبتعداً عن التفسيرات المسبقة، وتركز على فهم "جوهر" الظواهر من خلال منظور المشاركين وتجربتهم الذاتية ، وكذلك بحوث سيميولوجيا الخطاب الدينّي عند (توشيهيكو إيزوتسو)، ومحمد أركون، وغيرها من مختلف تطبيقات المناهج البنيويّة[2].

٢ - **مستوى النظريات المستبطنة، أو المعلنة أحياناً:** استمد الاستشراق في القرنين التاسع عشر والعشرين من عناصر العلمانيّة في الثقافة الأوروبيّة، وهذا التيار الجديد يتهيكل على أربعة افتراضات:

1- المجال الإسلاميّ كلٌّ متجانس، وهذا الافتراض يقوم على تحديد مزدوج لعالم عربيّ إسلاميّ ينظر إليه على أنه كيانٌ متجانسٌ؛ إذ يقلّص التعدّديّة الّتي تميز الحركات العاملة باسم الإسلام، لتحوّلها إلى مفهوم جامد، ذي منطوق تحقيريّ يسمّى «الإسلام السياسيّ»، وينتج عن هذا الموقف سلسلة من الافتراضات المنهجيّة الّتي تقدّم مقاربة تتّسم باختصار التعدّديّة داخل المجال الإسلاميّ.

2- يفترض الفكر الاستعرابيّ أنّ المجال الإسلاميّ يعدّ عاجزاً، من وجهة نظر تاريخيّة ودينيّة، أمام الحداثة، ومن هذا المنظور يرى أنّ الجواب عن سؤال التخلّف والتأخّر في العالم الإسلاميّ إنّما يعود إلى عوامل تتعلّق بالهُويّة في تلك المجتمعات كالثقافة والدين والتاريخ، وإلى النقائص الثقافيّة للإسلام نفسه.

3- جمود العالم الإسلاميّ، وهذا الافتراض يقوم على تصوير المجال الإسلاميّ بوصفه كتلة مصمتة وساكنة، يتشكّل الفرد فيه عبر الثقافة والدين المؤطّرَين بقوة عبر الأعراف الاجتماعيّة، ويخالف النمط الغربي الديناميكيّ الحديث، والذي يشكل معقلًا للتحرّر، ويوفّر مساحات للإنجاز الفرديّ.

[2] يُنظَر: الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، ص88- 89.

٤- العنف الإسلاميّ هو نتاج ثقافيّ، ويقوم هذا الافتراض على استخدام مصطلح الإسلام السياسيّ، أو الإسلام مرادفًا لإيدلوجيا شموليّة، بأنْ تكون مبادؤها هي خصائصَ عمليّة مباشرة تفسّر اللجوء إلى العنف، وبهذا يرتبط خيال الإرهاب الإسلاميّ ارتباطًا وثيقًا بتعريف العقليّة العربيّة[3].

هذه هي التصورات العامة التي وضعها الغرب في نظرته تجاه العالم الإسلامي، فمن الواضح أنه كان يعتمد مجموعة من الإسقاطات الموروثة، وأنه قد بنى مخيلته المعرفيّة على علم منحاز ومؤدلج يستند إلى عقدة التفوق الغربي على العناصر البشرية الأخرى، متجاهلين جهود الحضارة الإسلاميّة في نقل المعرفة وتطويرها، وفي الترجمة والبحث العلمي، بيد أنّنا نجد أنّ هذه التصورات تختلف من محور إلى آخر في العالم غير العربي، فسنجد أنّ الاستعراب سيكتسب صورة مشرقة في العالم الآسيويّ.

الاستعراب الآسيويّ:

فالاستعراب الآسيوي تكتسيه خصوصيات تميّزه من الأوروبيّ الذي نشأ نشأة استعماريّة يسعى في غالبه لمحو الوجود الإسلاميّ باحتسابه العدوَّ الأوّلَ الذي يشكّل خطرًا على المركزيّة الغربيّة؛ إذ ترجع هذه الخصوصية إلى حقيقة الوعي الكامل بالحضارة الإسلاميّة الذي قام عليه، وعدم ارتباطه بالعداء والاعتلاء الذين تمليهما المركزيّة الغربيّة"[4]، وتعكس حاليًّا، العلاقات بين الصين والعرب أهميّة الحركة الاستعرابيّة ومدى تجاوب الصينيّين مع مسارها وتمثيلها في مختلف المجالات؛ إذ تشهد الجامعات الصينيّة مساحة واسعة للاستعراب انطلاقًا من تخصيص أقسام للغة العربية وعلومها، فبعد تأسيس جمهوريّة الصين الشعبيّة في العام (1949)، وبالتوازي مع تطوّر العلاقات بين الصين الشعبيّة والدول العربية، أنشأت الحكومة تخصّص اللغة العربية في جامعات ومعاهد عدّة؛ منها معهد الشؤون الدبلوماسيّة، وجامعة الاقتصاد والتجارة الخارجيّة، وجامعة الدراسات الأجنبيّة في بكّين، والمعهد العسكري للّغات الأجنبية في لويانغ، ومعهد العلوم الإسلاميّة الصينيّ، وجامعة الدراسات الدَّوليّة في شانغهاي، ومعهد اللغات في بكين، والمعهد الثاني للّغات الأجنبية في بكين. وقد أعدَت هذه الجامعات والمعاهد آلافاً من الأكْفَاء الذين يعملون في مجالات الشؤون الخارجيّة، وقد ساهم

[3] يُنظَر: الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، من ص90 إلى ص98.

[4] - ماضي، نوال، حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية، قراءة في تجارب عالمية رائدة ، جامعة جيجل الجزائر، ورقة بحثية مقدّمة للمشاركة في المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية (الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي، دبي، 2014م، صفحة 5.

هؤلاء مساهمة عظيمة في تطوير العلاقات الصينيّة العربيّة، ولم تتوقف مظاهر الاستعراب عند التعليم الكلاسيكي، إنّما امتدّت إلى الترجمة لتوسيع التبادل الحضاري والثقافي المنشود، ونتيجة لذلك، أُنشِئ قسم تخصّص اللغة العربيّة في خمس جامعات إقليميّة، ومعظمها في المناطق الواقعة غرب الصين، حيث يتكثّف وجود القوميّات المسلمة.

كما أُنشِئ مجمع اللغة العربيّة في الصين للتعليم والدراسات في العام (1985م)، والذي انضمّت إليه مختلف الجامعات التي تدرّس اللغة العربيّة، وينظّم المجمع سنويًّا فعّاليّات متعلّقة بتعليم اللغة العربيّة، كعقد دورات، وندواتٍ علميّة، وإقامة مسابقات الخطابة أو الإنشاء أو الترجمة أو العرض الفنّي بين طلبة الجامعات. ويتجسّد الاستثمار اللغويّ للعربيّة، بسعي الصين مؤخّرًا لوضع برنامج تنفيذيّ على مستوى وزارة التعليم يقضي بخلق فرص التوظيف لطلاب اللغة العربية في الصين، وكذا لاستحداث مناصب شغل على المستوى الخارجيّ، ولاسيّما في بعض الجامعات المهمّة من الدول العربيّة[5].

أمّا مؤخّرًا وبالتعاون مع مجمع الملك سلمان العالميّ فقد أطلق المجمع "شهر اللغة العربية" في مدينتي بكين وشنغهاي (2024)، واليوم تستغل الصين وسائل الذكاء الاصطناعيّ وتتبنّى الصين وسائلَ تعليميّة حديثة، منها مواقع تعليميّة، مثل: موقع (خوجيان)، وتطبيقات رقميّة تسهّل التعلّم عن بعد.

ومن جهة أخرى نتابع حركة إيجابيّة للاستعراب الأسيويّ في روسيا:

إذ تبدأ المعرفة الواسعة للشرق العربيّ في روسيا، في الربع الأوّل من القرن الثامن عشر، في علاقة يمكن أن نصفها بالعلاقة الواعية (المنهجيّة)، فقد اتّسمت هذه العلاقة بالسعي للتعرّف إلى الشرق ومحاولة فهمه ودراسته، وتلك البداية كانت بمبادرة من القيصر (بطرس الأكبر) الذي أمر بنسخ بقايا الكتابات العربيّة المحفوظة في مدينة بولغار، وهي مدينة اعتنق سكانها الإسلام عام 922 م. ومن الواضح أنّ عملية نشر هذه الكتابات أثّرت كثيرًا في تطوير الاستعراب الروسيّ في تلك الفترة، ننتقل مباشرة إلى نهاية القرن التاسع عشر، فقد نهجت الدراسات العربيّة فيها نهجًا علميًّا حتى قيام ثورة أكتوبر الاشتراكيّة العظمى، وأصبحت تلقى اهتمامًا متزايدًا من الجامعات الروسيّة.

[5] يُنظَر: ماضي، نوال، حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية: ص10.

ومن أهم المراكز الثقافيّة الروسيّة التي تحمل في رفوفها أكبر ميراث للمخطوطات العربيّة: 1- معهد الدراسات الشرقية لأكاديميّة العلوم الروسيّة. 2- معهد المخطوطات الشرقيّة التابع لأكاديمية العلوم الروسيّة. 3- معهد بلدان آسيا وأفريقيا التابع لجامعة موسكو. تحيي هذه المراكز الإرث العربي القديم في مجالات العلوم والرياضيات والطب والجغرافيا وغيرها.

وجدير بالذكر أنّ الاستعراب الروسيّ قد اكتسى سماتٍ استمدّها من السياقات الخاصة التي مرّ بها، ترجع أساسًا إلى الطرق التي انتهجها؛ فالموضوعية في النظر إلى ثقافات الشعوب العربيّة والإسلاميّة نظرة مساواة هي المنهج الأول ترسبت من الالتماس المباشر بمصادر الإحاطة بعلوم العرب، فالرحلات العلمية المتبادلة بين الأساتذة والعلماء من الطرفين سَهِمت في تكريس صورة العربي الحقيقيّة ولغته في وعي الروسيّين بأقلَّ من الأخطاء التي شابت الدراسات والمغالطات المنشقّة عن الاستشراق الأوروبي. ضف إلى تلك السمات الأسس الراسخة في الاستعراب الروسيّ التي تتجنب الازدراء الثقافيّ، فلا تستند إلى وصاية أو هيمنة[6].

كانت هذه فكرة عامة عن الاستعراب بوجهيه المشرق والمظلم، وفيما يلي نركّز على تعانق جانبي اللغة والدين، كونهما يشكّلان معًا البوابة الرئيسة لولوج العالم العربي وفهم معتقداته. وقد تمركز هذان العنصران في إبراز جدليّات عدّة عكستها تصوّرات عميقة تختلف باختلاف التوجّهات والرؤى والغايات في فئات المستعربين، إليكم بيانَ أهمّها وأكثرها تأثيرًا في الرأي العالميّ.

تصوّرات في جدليّة اللغة والدين:

أولًا: كونيّة الحرف القرآنيّ:

كلّما كان الباعث على اكتساب لغة ثانية دينيًّا كان تفاعل اللغتين المحليّة والوافدة تفاعلًا إيجابيًا يكون سببًا في نموّ اللغتين وتطويرهما. وقد أبانت كثير من الدراسات اللغوية عن أشكال الإفادات اللسانيّة المترتّبة عن احتكاك العربيّة وغيرها من لغات المسلمين، من أهم مظاهر التقارض استعمال الحرف القرآنيّ لكتابة اللغات الشفويّة المتكلَّمة من لدن

[6] يُنظَر: ماضي، نوال، حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية: ص11- 12.

الشعوب الناطقة بغير العربيّة أصلاً، والتي دخلها الإسلام لاحقاً؛ وهي لغات تعدّ بالعشرات، نتيجة لهذا التقارض ظهر في الأندلس قديماً الأعجمية الموريسكيّة؛ وهي لغة الإيبيريّين الذين تركوا النصرانيّة ودخلوا الإسلام، فكتبوا بالحرف القرآنيّ لغتهم الإسبانية مطعّمة بألفاظ عربيّة إسلاميّة. وفي العدوة الأخرى ظلت اللغات الأمازيغيّة شفويّة طيلة تاريخها الطويل، ولم تمرّ إلى طور الكتابة إلا بدخول الإسلام ولغته العربية إلى منطقة الشمال الإفريقي؛ وعندئذ أخذ الأمازيغيّون يترجمون من العربيّة نصوصاً دينيّة إلى لغاتهم المحليّة؛ كالريفية والشلحية والسوسية والقبايلية والمزايبة والشاوية وغيرها الكثير التي شرعوا لأوّل مرّة في كتابتها باستعمال الحرف القرآنيّ. وبذلك نشأت في المنطقة كتابات أمازيغيّة اللسان، إسلاميّة المضمون، عربيّة الخط.

وتكرّرت التجربة نفسها في البلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى؛ إذ بدخول الإسلام إلى المنطقة بدأت حركة، الترجمة من العربية إلى اللغات المحلية، كالهوسا والفلاني والتماشيق والزرما والسوناي والسواحلية والماندیك، ونحوها الكثير الذي يشارف الأربعين لغة، وتبعاً لذلك نشطت حركة تدوين الثقافة الإسلاميّة باستعمال اللغات المحليّة المكتوبة بالحرف القرآني. وهكذا تكون لأوّل مرّة في كثير من البلدان الإفريقيّة تراث محلّيّ اللسان، إسلاميّ المضمون قرآنيّ الحرف، علماً أنّ ثمانين بالمائة (80%) من اللغات الإفريقيّة مازالت إلى الآن شفويّة بسبب افتقادها لنسق من الرموز الخطّيّة لرسم أصواتها.

وعمّت ظاهرة اقتراض الحرف القرآنيّ الأرجاء، فتحوّلت لغات المسلمين الشفويّة في كثير من البلدان الآسيويّة إلى لغات مكتوبة بأبجديّة اللغة العربيّة؛ منها مجموعة اللغات الإيرانيّة المستعملة في الجنوب الغربيّ من القارة الآسيويّة كالفارسيّة والكورديّة والبلوتشيّة والباتشو المتكلّمة في أفغانستان ومجموعة اللغات التركيّة؛ كاللغة العثمانيّة المتكلّمة في تركيا وأقلّيّات البلقان وآسيا الوسطى، والأزبكيّة والكزاخية والتركمانيّة والأزبكيّة وغيرها. يُضاف إلى ما سلف الأوردو اللغة المتكلمة في الباكستان وإحدى الولايات الأربع عشرة في الهند، واللغة الملايوية المنتشرة في أرخبيل الملايو الذي يضم أندونيسيا وماليزيا والفليبين وإبروناي وسنغافورة. وبعض الدارسين أوصل اللغات الآسيوية المكتوبة بالخط العربي إلى ثلاثين لغة.

وبعبارة مختصرة: إنّ القرآن هو الذي وفّر للغات المسلمين المنتشرين في أرجاء الأرض أبجدية، فأجمعوا، رغم تباعد أوطانهم جغرافيًّا وصعوبة تواصلهم عمليًّا، على الترحيب بقدوم العربيّة، وعلى اتّخاذ أبجدية هذه اللغة أداة لكتابة لغاتهم الشفويّة التي وصلت في بعض التقديرات إلى ما يفوق الستين لغة. وبفضل القرآن الكريم كتب أصحاب تلك اللغات لأوّل مرّة حضارة مشتركة؛ مضمونها إسلاميّ ولسانها محليّ أو إقليميّ وحرفُ ألسنتهم قرآنيّ[7].

وكما لحظنا من بسط الجدلية الأولى تتّسم الحركة الاستعرابية بسمات إيجابية ممتدة امتداد الحاجة إلى تعلّم النصّ الدينيّ تعلّمًا لا تشوبه لوثة التشويه المقصود لمحمولات اللغة المنقولة، بل على الضدّ من ذلك يبدو الاستقاء المعرفيّ من ثقافة العرب محفوفًا بهالات التقديس والاحترام والتبجيل.

ثانيًا: المنهج اللغويّ (الفيلولوجيّ) المطوّر:

وفي هذا الإطار ننتقل من دائرة التأثّر العامّ بالحرف القرآنيّ، وقبول الكتابة به قبولًا يفرضه التواصل الحضاريّ الراضخ لمنطق الجهة الغالبة ثقافيًّا وحضاريًّا إلى دائرة خاصة في استقبال النصّ الدينيّ استقبالًا مشروطًا بتفسيرات تابعة لمناهج علمية مطوّرة، وذلك بتأثير من المدارس الألسنيّة الحديثة في نقد النصوص وتطوير التراث النقديّ الذي اشتهر تطبيقه منذ القرن التاسع عشر على نصوص العهدين القديم والجديد، فقد قدّم عديد من المستشرقين الجدد أطروحات تنتمي إلى حقول علم اللغة المقارن (الفيلولوجيا)، والتي تدرس النصّ القرآنيّ وتاريخ الإسلام المبكّر كما يسمّونه أو تاريخ الحقبة التي نشأ فيها الإسلام وظروف تلك النشأة وتداعياتها. ويتميّز هذا الاتّجاه البحثيّ بنقده الجذريّ للدراسات التاريخيّة والفيلولوجيّة في الاستشراق التقليديّ والتنديد باعتمادها على المصادر العربية، وكذلك محاولته توظيف بعض المعطيات الأركيولوجيّة في مشروعه لإعادة بناء تاريخ النصّ القرآنيّ، وسائر وقائع الإسلام المبكر[8].

وفيما يلي أستعرض نماذج متعدّدة لأبرز الدراسات التي تبنّت هذا المنهج باختلاف اتّجاهاتها، مع الحرص على الاختصار، فقد قدّم الألماني **(فونترليلنف)** في العام (١٩٧٤م) دراسة بعنوان (Urkuran)؛ أي: «القرآن الأصل»، وقد ظهر

[7] يُنظَر: الأوراغي، محمد، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ص130-131- 132.

[8] يُنظَر: الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، صفحة: 120.

مصطلح (**Ur-Text**)؛ أي: النص الأصل في الدراسات النقديّة الأدبيّة الجديدة؛ ويعني أنّ النص الأدبي يتكون من جملة من النصوص المتراكمة، والمتعاقبة التي تشترك فيها كل البشرية، ومن ثم فإن كلّ النصوص الأدبية مهما كان نوعها، أو جنسها، أو لغتها؛ إنّما نشأت عن نصّ أصل مفهومًا لا واقعًا فعليًا. ونقاد الأدب المعاصرون يجعلون هذا النص الأصل مفهومًا تحليليًّا موصولًا **بنظرية تراكم النصوص** وتفاعلها للإحالة على سياقها الثقافيّ العامّ الذي تشكّلت فيه[9].

أمّا (فونتر ليلنف) فقد استعار هذا المفهوم ليس من أجل أن يستعمله بوصفه تصورًا نظريًّا، بل ذهب يبحث فعليًا عن النصّ القرآنيّ الأصل، وقام بعمل تجميع للنصّ الأصليّ للقرآن، فتوصّل بعد تطبيق منهج انتقائيّ إلى أن القرآن ليس سوى تركيب عربيّ الجملة من النصوص اليهوديّة والمسيحيّة، وأنّ ما يزيد عن ثلث القرآن (قصار السور تحديدًا)- نظرًا إلى طابعها الشعريّ، وأسلوبها الغنائيّ الدينيّ- ليست سوى مقاطع من أناشيد كنسيّة مسيحيّة كان يردّدها الكهّان في صلواتهم.

وفي العام (١٩٧٧م/ ١٣٩٨هـ) نشر (جون وانسبورو) الباحث في جامعة لندن للدراسات الشرقيّة والإفريقيّة كتابه المعروف (دراسات قرآنية)، وأطروحته المركزية مفادها أنّ القرآن لم يدوّن إلا بعد حوالي قرن ونصف القرن من وفاة النبي. وقد تدخل كثير من المسلمين في صياغته، وإضافة بعض المقاطع له. وأنّ الروايات التي تحدّثت عن جمع عثمانيّ للنصّ القرآنيّ هي روايات مختلفة بشكل بعديّ لإضفاء مشروعيّة رمزيّة للقرآن. وقد اعتبر (وانسبورو) أنّ القرآن خليط من المقاطع التي تواصَل تأليفها وجمعها فترة تاريخيةً طويلةً، وأنّه لا يوجد دليل على أنّه قد ظهر أصلاً قبل سنة (٥٩هـ) حين اكتمل بناء مسجد الصخرة بالقدس، وقد احتوى المسجد على نقوش يختلف رسمها نوعاً ما عن النصوص القرآنية التي عرفت في القرون اللاحقة. والخلاصة عنده أنّ القرآن نصّ بشريّ لم يظهر إلا بعد وفاة النبيّ»[10].

ومن الدراسات التي تأثّرت بمنهجيّة (جون وانسبورو) كتاب (الهاجرية: تكوين العالم الإسلاميّ) للباحثَينِ (مايكل كوك، وباتريسيا كرون)، وهو بحث في أسباب نشأة العقيدة الإسلاميّة، وهو أحد البحوث التي قدّمها الباحثان في نقد التاريخ الإسلاميّ والنصّ القرآنيّ.

---

[9] يُنظَر: مرجع سابق، صفحة: 113.

[10] الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، صفحة: 114- ١١٥.

يعتمد كوك وكرون في هذا النقد على مادة أركيولوجيّة أثريّة؛ كبعض النقود القديمة، وبعض الكتابات على المعالم الأثرية، وكذلك على الوثائق التاريخيّة كبعض النصوص اليونانية والسريانية والأرمنية والعبرية والآرامية والقبطية التي تعود إلى زمن الفتوحات الإسلاميّة في القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلاديَّين. وفي كتابهما الهاجريّة يرفض الباحثان كلّ المصادر الإسلاميّة التي تؤرّخ لنشوء الإسلام، ويتّهمانها بكثرة النحل انطلاقاً من دافع بناء الدولة الإسلاميّة ومن انتماء واضعي هذه النصوص إلى نخبة متواطئة مع سلطة سنيّة حاكمة، ومن حاجة العلماء إلى تقديم[11] صورة مثاليّة ومتماسكة عن الدين الذي رفع شأنهم، وهذا أدى بطبيعة الحال لوصول الباحثين إلى نتائج غير علمية بالغة الشذوذ والغرابة[12].

«ومن الأطروحات الراديكالية أيضاً النظرية التي قدمها المؤرخ والمستشرق الألماني (كريستوف لوكسنبرغ)، وهو اسم مستعار في كتابه المشهور: (قراءة سريانيّة آراميّة للقرآن مساهمة في تفسير لغة القرآن الكريم)، يرى المؤلّف في هذا الكتاب أنّ القرآن ليس سوى كتاب فصول، وتراتيل طقسيّة كنسيّة، ولفظة «القرآن»- كما يزعم- مشتقّة من الأصل السريانيّ «قريانا» التي تعني كتاب الفصول، ومحمد [ﷺ] لم يكن يهدف عند ترجمة هذا «القريان» من السريانية إلى خليط عربيّ- سريانيّ- آراميّ إلى إنشاء دين جديد، بل إلى إرساليّة تبشيريّة مسيحيّة فقط. ويذهب لوكسنبرغ إلى أنّ وجود كلمات وصيغ غامضة في القرآن إنّما هو بسبب أنّ تلك الكلمات تنتمي إلى اللّغة السريانيّة، وأنّ الصحابة والمفسرين غلطوا جميعاً في تفسيرها، وبخاصة عندما تغيّرت لفظًا من الناحيتين الصَّرفية والنحويّة. ويذكر لذلك أمثلة كثيرة»[13]. منها ما ذكره في قوله تعالى: ﴿**فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾[**البقرة : ٢٥٩**]، فقد توصّل بعد عمليّات فيلولوجية اعتباطيّة ومعقّدة إلى أنّه مقطع محرّف عن أصله السريانيّ، وهو بالسريانية هكذا: فانظر إلى طَعْمِك وشربك (حالك وأمرك) لم يشتنه (يتغير) وانظر إلى جمارك (كمالك) ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها (نصلحها) ثم نكسوها (لحمًا). وأيضاً تناول لكسنبورغ صفات الجنّة في القرآن في كتابه، وزعم أنّ أغلبها ترجع إلى نصوص سريانية معروفة بـ«الميامر» ألفها أفرام السرياني (٣٠٦- ٣٧٣م)، وأوضح أنّ لفظة «حور» في قوله عز وجل : (**وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**﴾[**الو اقعة:٢٢، ٢٣**] إنّما هي صفة سريانيّة للعنب الأبيض، وأنّ «عين» نعت وتشبيه للعنب بصفاء اللؤلؤ المكنون، وجاء إلى قوله تعالى:

[11] مرجع سابق، صفحة: 116.
[12] يُنظَر: مرجع سابق، صفحة: 117- ١١٨.
[13] مرجع سابق، صفحة: ١١٩.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:٢٠]، فقال إنّ الصواب في «زوّجناهم» أن تكون هكذا: «وروّحناهم» بالراء المهملة، ويكون المعنى «أطعمناهم»، ويقول إنّ العرب حين نقطوا المصحف حولوا الراء إلى زاي، والحاء إلى جيم؛ وذلك بتأثير من خيالاتهم الجنسيّة»[14].

وبالمناسبة «كتاب لوكسنبرغ ظلّ مغمورًا حوالي سنتين، إلى أن اهتمّت به الصحافة الأمريكيّة اهتمامًا بالغاً بعد أحداث سبتمبر، ونشرت نيويورك تايمز مقالًا وظّفت فيه رؤية لوكسنبرغ توظيفًا سياسيًا، وعدّ كاتب المقال أنّ منفّذي هذه الأحداث سيشعرون بالغبن؛ لأنّهم كانوا ينتظرون (كواعب أتراباً) في الجنة، في حين أن مقصود الآية هي الفواكه الملأى بالعصير؛ بناءً على القراءة السريانية للوكسنبرغ!»[15]. وهذه الدراسات هي من الغرابة بمكان، إذ كيف لمن يدّعي التفوّق العلميّ واتباع المناهج الدقيقة في البحوث أن يعتمد على مثل هذه الأطروحات المهلهلة، بل المضحكة. وأجد أنّ الفكر القويم - والله-لأشرف من أنْ يفرّغ ساحته للتبارز مع تلك الأفكار الضالّة.

الجدلية الثالثة: توظيف المناهج الغربية في قراءة النص القرآني المقدّس:

وفي متابعة لمناهج نقدية حديثة في تناول النصوص الدينية نرى أنّ علماء الغرب في العصر الحديث عُنُوا بالدراسات القرآنيّة، وقد كان المنهج السائد في الدراسات القرآنيّة هو المنهج النقديّ التاريخيّ من خلال جمع المخطوطات ودراستها دراسة علميّة بغرض الوصول إلى نسخة محقّقة من القرآن الكريم تدحض الرواية الإسلاميّة لقصة جمع القرآن الكريم، وترسي دعائم القول بأن نشأة القرآن الكريم تأخّرت إلى القرن الثاني أو الثالث، وقد حاول لفيف من المستشرقين بلورة هذه الفكرة من أمثال (برجشتراسر)، ثمّ إنّ بعد الاتجاه النقديّ التاريخيّ ثَمَّةَ ظهور لاتّجاه التحليل اللسانيّ الدلاليّ الذي تجاوز مسألة تدوين القرآن الكريم إلى مسائل الفهم والتفسير، ووظّف من أجل هذا المناهج اللسانيّة الجديدة في تحليل الخطاب والنصّ القرآنيّ، ثم جاء دور الدراسات التي ركّزت على جوانب التناصّ الداخليّ في القرآن، وكذا تناصّه مع النصوص الأخرى تبعًا للمنهج التأويليّ. وكل هذا نجده في اهتمام علماء الغرب بدراسة النصّ القرآنيّ. أمّا المحدثون من علماء العرب فقد تأخّروا في الولوج لهذا العلم حتى وقت قريب، لعلّ السبب في ذلك يعود لتخوّفهم ونظرتهم إليه، فكانوا يرون صعوبة في إقناع وتقديم هذه المناهج إلى القارئ العربيّ، ولأنّه علم غربي أوجدته الظروف الأوربيّة التي تختلف في

[14] الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، صفحة: 120.

[15] مرجع سابق، صفحة: 121.

بيتها وشعوبها وتكوينها وظروفها اختلافًا جذريًا عن العرب. بل إنّ بعضهم ذهب إلى أنّ الانفتاح على اللسانيات هو بمنزلة الحكم على النحو العربيّ بالضياع. لكن هذا لم يمنع من قيام دراسات لغويّة عربيّة حديثة في محاولة التأسيس لنظريّة لسانيّة عربيّة تقوم على وصف اللغة في ضوء توجّهات لسانيّة حديثة وظيفيّة أو تداوليّة بنيويّة وصفيّة أو توليديّة. بل إنّ بعضهم بالغ في دعوته إلى تبنّي اللسانيات وترك النحو العربي.

إنّ الدراسات الحديثة للقرآن الكريم التي اعتمدت على المناهج اللسانيّة الحديثة استبدلت مناهج العلوم الطبيعيّة؛ لأنّها ترى أنّها علوم في حقيقتها توجد خارج النص في حين أنّ المناهج اللسانيّة تتّسم بأنّها مناهج من داخل النص؛ فالمنهج البنيوي ينظر إلى النص القرآني نظرته إلى أيّ نص من النصوص البشرية، فيحاول تصويره على أنّه نصّ مغلق مات صاحبه، وتستخدم التفكيك استراتيجية لزحزحة القناعات والتشكيك في الأنظمة والتفسيرات الأخرى لمعاني النصّ القرآني ما يفتح الباب للتأويل المنفلت؛ لأنّها ضد الأحكام النهائيّة اليقينيّة الحاسمة، فتتعامل مع النصوص والواقع الاجتماعيّ والطبيعيّ والعالم على أنّها مشاريع مفتوحة متجددة قابلة للاكتشاف والفحص والتأويل. نجد اللسانيات تتعامل مع اللغة في مجتمعات متنوعة ومختلفة، وهي تختلف في تفسير الحقائق الماديّة باختلاف المجتمعات في تفسير الحقائق المادية ووصفها، من ناحية، وارتباط اللغة بالهوية والشخصية من ناحية أخرى يجعل الفكاك بين الوجهين أمرًا عسيرًا في الواقع؛ فلم تزل اللغة ابنة المجتمع منذ القدم وحتى الوقت الحاضر وستستمر. فوجودها مقرون بوجود الانسان. لقد كان توظيف المناهج اللسانية في القراءة الحداثيّة متّسمًا بنوع من التعسّف والتجاوز لإشكاليات عديدة، وخاصّة لأنّ هذا العلم لم يستقر على أسس ثابتة، بل لا تزال مفاهيمه ومناهجه ونظرياته تتغيّر، ومن الصعب حصر الآراء فيه، فكل مدرسة جديدة ترفض ما انبنت عليها فِكَر من سبقتها، وتؤسّس لمنهج جديد تتعامل به مع موضوع العلم[16].

[16] يُنظَر: مثكال، بشرى كاظم، لسانيات قرآنية معاصرة في ضوء المناهج اللسانية، مجلة الكلية الإسلامية، العدد ٧٠، الجزء: ١، ص385- 386- 387. وللتوسع يُنظَر كتاب محمدي، بركات رياض، مناهج النقد الأدبي الحديث وإشكاليات تفسير القرآن، تحت إشراف عفت محمد الشرقاوي وعاطف جوده نصر، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، سنة 2011م. ويُنظَر: حامدي، صدام، أسس بناء المنهج النقدي عند أنور الجندي كتاب "أخطاء المنهج الغربي الوافد" نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية والأدب العربي، السنة 2015-2016. ويُنظَر: أركون، محمد، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب-لافوميك، الجزائر، سنة 1993م.

غير أنّ هذا لا يمنع من اتّخاذ الإجراءات المنهجيّة الحديثة وسيلة لدراسة النص في الخطاب الديني، وذلك من بعد التنبّه إلى جملة أمور تحمي النص الدينيّ من التحريف يمكن تلخيصها في ما يلي:

1- في التعامل مع المناهج الغربيّة الحديثة ينبغي تذكّر الذات المسلمة والوعي بحدود التواصل الحضاريّ والثقافيّ مع الشعوب الأخرى، فليس التاريخ العربيّ الإسلامي هو تاريخ الغرب لا في تصوّره الإنسان والكون والحياة، ولا في رؤيته لعلاقة الدين بالدولة، ولا في فتوحاته وانفتاحه على تجارِب الآخرين.

2-رفض التبعيّة والتقليد في إسقاط هذه المناهج الألسنيّة والتأويليّة بمرجعياتها وآلياتها على النص القرآنيّ؛ إذ إنّنا بحاجة فعلًا إلى المساهمة وتوظيف كلّ الجهود قصد تحريك عجلة التنمية الحقيقية المنبثقة من ثقافة الأمة وعمقها الحضاريّ من دون إحداث قطيعة مع تراثها، ولا إلغاء لخصوصية ذاتها، ومن دون التقيّد بالآخر لدرجة الذوبان.

3-العمل على البحث في مجال الدراسات الأدبيّة وربطها بالنصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة، فعدم الجمع بين الجانبين بتوظيف مناهج علميّة رصينة، والاستفادة من المناهج الأدبيّة في خدمة النصّ الإسلامي عمومًا يعدّ من الأسباب والمداخل الرئيسة لتسلّل مختلف الكتابات المعاصرة التغريبيّة وإسقاط مناهجها على هذا التراث.

4- إنّ قضية توظيف المناهج في الفكر العربي ليست دعوة بريئة، لا يمكن فهمها بمعزل عن الخلفيّة الناظمة وعن حركة الصراع ومعادلات القوة بين الأنماط المجتمعيّة التاريخيّة؛ فالمرجعيّة التي تبنّاها استغرقت كلّ إنتاجه الأدبيّ والفكريّ والفلسفيّ والاجتماعيّ؛ ما أثّر في تعميق التبعيّة والإلحاق وتكريس العولمة وتدمير الخصوصية الثقافية في القطيعة مع ثقافته وماضيه، بل تشكلت له مواقف سلبيّة تُجاه الماضي تاريخًا وتراثًا، وأعيدت قراءته وفق معايير الآخر، وأدمج تاريخنا في تاريخه وحاضرنا في مستقبله؛ ما ساهم في تشكيل مجتمعاتٍ أصبحت هوامش تدور في فلك المركز الغربي فقط، فانعكس على الاستقرار الاجتماعيّ والتنمويّ، حيث ظلّ المجتمع العربيّ مسرحًا لكلّ التجارِب.

5- نحن بحاجة إلى إعادة قراءة مضامين الأصالة بأبجديات إسلاميّة، وبذهنيات مخلصة وعاقلة، تمتلك شرعية القراءة ومؤهّلاتها، وبحاجة إلى وسائل ومناهج دراسيّة لها من الشمول والاستيعاب ما يؤهّلها لهذه المهمة الجليلة[17].

[17] فيلالي، مريم، النقد الإسلامي لتوظيف المناهج الغربية في النصّ الدينيّ المقدّس –القرآن الكريم- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة- مخبر الدراسات العقديّة ومقارنة الأديان: ص10. ويُنظَر: محمد علواش، مناهج تحليل الخطاب القرآني في الفكر العربي

هذه الجدليّة بين اللغة والمعنى الدينيّ تحيلنا على مسألة مهمة، وهي رداءة ترجمة النصّ القرآنيّ، وعدم نقل المعاني الدينيّة بدقّة من لغة إلى أخرى من خلال الترجمة، مثل السلبيات التي وقعت في ترجمة (ريفلين)، كتغيير زمن الأفعال في القرآن الكريم، أو إضافة كلمات على النص القرآنيّ؛ لتحدث خللًا في المعنى أو يقيّده، لكن المقام لا يتّسع لذلك العرض[18]، فاكتفينا بما سبق.

الجدلية الرابعة: اللغة وتشويه التراث الإسلامي:

للأسف الشديد عندما يكتب بعض المستشرقين الجدد فإنهم يكتبون من منطلق الطعن ومحاولة التشويه، ونذكر منهم على سبيل المثال (برنارد لويس)[19] الذي لا يختار من الموضوعات إلّا الشائكة، ففي دراسة له عن الزنوج أو السود في الإسلام اختار النماذج التي تسيء إلى السود محاولةً منه لتشويه العلاقة بين الأفارقة السود والمسلمين، فركّز على نماذج من شعر بشار بن برد تسيء إليهم، وينسى النماذج المضادة، ينسى أنّ بلالًا كان مؤذّن الرسول، ولم ينتبه إلى قصة عنترة بن شدّاد وتأثيرها العميق في التراث الشعبيّ العربيّ، وفي الوجدان العربيّ والفولكلور العربيّ. ويختار المستشرق الشخصيّات التي يدور حولها كثير من الجدل، مثل: ابن الحلّاج أو ابن سبعين في التصوّف، وتجدهم لا يهتمون بالقيم الصوفية الحقيقية المتأثرة بالمنهج الإسلامي[20].

لقد اشتغل المستشرقون شغلًا سياسيًّا وجاسوسيًا ضخمًا في شمال أفريقيا، وعملوا كذلك على إثارة الفتنة الطائفيّة عبر نشر كتب وتحليلات معيّنة، وعبر تشويههم للتراث الإسلاميّ والتاريخ العربيّ، وهو ما أدى إلى ما شهدته لبنان من حرب طائفيّة، وأيضًا ما نشهده من محاولات لزرع الفرقة بين أقباط مصر ومسلميها حتى يهدّدوا بها عروبة مصر وإسلامها، ثم من الذي نشر النزعة البربريّة في شمال أفريقيا؟ أليست المدارس الفرنسية، (بروفنسال) وجماعته، و(لاوست) وجماعته، وكثير من الأسماء التي اهتمّت بدراسة اللغة البربريّة والعمل على فصلها عن اللغة العربيّة؛ كي يمنحوا لقسم من شمال

المعاصر، تقرير عن رسالة دكتوراه تحت إشراف د. محمد خروبات، السنة الدراسية 2011-2012م، بموقع الألوكة، بتاريخ 2016/5/31م، على الرابط https://www.alukah.net/sharia/0/103789/

[18] للتوسع يُنظَر: سالم، نجلاء رأفت، إشكالية ترجمة معاني سورة طه بين ريفلين وروبين، دراسة دلالية، رسالة المشرق، مجلد 29، سبتمبر، 2014، ص44- 46.

[19] وهو أستاذ فخري بريطاني-أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون ومستشرق يهودي. وتخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب. وهو من أبرز المخططين لمشاريع تقسيم الوطن العربي ، ولد في 1916م، وتوفي في 2018م

[20] يُنظَر: الشيخ، أحمد، المثقفون العرب والغرب، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط1، 2000م، صفحة: 82.

إفريقيا ذاتيّة ثقافيّة، وبذلك يحصل انشقاق في صفوف الأمة. لقد دمّروا فعلًا التكوين والوحدة الحضاريّة للمثقفين. هم الذي يتبنون الآن الكتب التي تدمر الكيان العربيّ الإسلاميّ أو التي تنهج منهجًا يمضى مع تفكيرهم[21].

الجدلية الخامسة: التعليم والتلقيّ الغربي لصورة العرب والمسلمين:

يمكننا أن نتحدّث فقط عن غرب أوروبا وعن ألمانيا الغربيّة على وجه التحديد. سنجد أنّ هذه المنطقة منحازة في التناقضات العالميّة، وهي لا تتبنّى قضايا العرب ولا تنظر إليهم إلّا كمصدر للاستغلال والربح، فالعرض العام للثقافة العربية في ألمانيا هو عرض مجحف وخاصة في وسائل الإعلام الرسميّة. ويمكن أن نضرب عدّة أمثلة على ذلك، مثلًا: عرض أوبرا عايدة في مصر، وهو حدث فنّيّ رائع لكن كافة أجهزة الإعلام تسكت عنه تماماً أو تكاد؛ لأنّه لا توجد لديهم الرغبة في إظهار الأحداث الثقافية ذات التأثير الكبير التي تقام في بلد عربيّ مثل مصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجد ترويجًا واسعًا للأعمال الروائيّة التي تعرض العرب في صورة سلبيّة؛ فأعمال الروائيّ الألماني **(كارل ماين)** في القرن التاسع عشر- وهي قصص مغامرات تعرض العرب بصورة سيّئة- لا تزال تطبع حتى اليوم، ولا تزال تباع بكميات كبيرة في الأكشاك وأساطير (لورانس العرب) تجد من يأخذها على محمل الجدّ، بل الأغرب من ذلك أنّك تجد أساتذة جامعات يصدّقون هذه الأساطير ويؤمنون فعلًا أنّ (لوارنس العرب) هو الذي خلق القومية العربية"[22]. وهذه النماذج التي يواجها العرب في الغرب لا شك في أنّها ستكون مستفزّة لهم، وستخلق جوًا مشحونًا بين الطرفين.

- وكذلك في المقرّرات التعليميّة في مدارس الغرب وجامعاته ذات الصفة الرسميّة يمنهج هذا التشويه الثقافيّ أيضًا، فكيف يتلقّى الطالب الأوروبيّ صورة العربيّ ثقافةً وتاريخًا؟

سنشير مباشرةً إلى المقرّرات التي تعبّر عن وقائع، فمثلًا في أطلس الجغرافيا تجد الجغرافيا الاقتصاديّة لألمانيا مليئة بالمصانع والثروات والإنتاج والحضارة، لكن عندما يأتي الطالب إلى منطقة العرب يجد صورة بدويٍّ يجرّ جملًا أو راعٍ يسير خلف أغنامه أو راكب حمار، أو أكواخٍ متناثرةٍ في صحراءَ شاسعةٍ، بحيث ينشأ وعيٌ لَدى الطالب منذ الصغر بأنّ العرب هم مجموعة بدو يرتدون جلاليب ولا يفهمون شيئًا في الدنيا. والطالب في ألمانيا يقرأ مثلًا في إحدى المقررات وصفاً عن العرب عام (٢٠٠٠ق. م)، ثمّ يقولون: إنّ العرب في ما بعد لا يختلفون عن العرب في ذلك الوقت .. أيضاً في المقررات

[21] يُنظَر: الشيخ، أحمد، المثقفون العرب والغرب، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط1، عام 2000م، صفحة: 82- 83.
[22] يُنظَر: مرجع سابق، صفحة 157.

التعليميّة التي تتناول تاريخ العلم وتاريخ التطوّر العلميّ في العالم لا تجد فيها غير التركيز على العلماء الغربيّينَ، أمّا من سبقهم من العرب فلا أحد يتحدّث عنهم، وهكذا تُقدَّم للأوربيّينَ ثقافة الصمت عمّا هو إيجابيّ لدى العرب، وفي الوقت نفسه ثقافة الترويج لما يسيْء إليهم[23].

نذكر على سبيل المثال صحفيّ ألماني مشهور يدعى (شول لاتور) ألّف كتاباً عن البلاد العربية وأعطاه عنوان: «الله مع الصابرين»، ويريد أن يعطى القرّاء بدءًا من العنوان صورة عن العرب تثير النفور منهم، وتصفهم بأنهم لا يفعلون شيئًا، في حين أنّ هذا المؤلف لا يعرف في الواقع كلمة عربية واحدة. فكيف يستقي معلوماته؟ وكيف يَثِق في من نقل له الكلام الذي يرويه؟

والغريب أنّ هذا الكتاب رُوّج له بصورة خياليّة، ولا يغيب اسم مؤلّفه عن أجهزة التلفاز أو الصحف أسبوعيًا. وأخطر ما في هذا الكتاب الذي يعلّم الألمان كيف ينظرون إلى العرب هو أنه ينشر نظريّة جديدة تقول: إنّ الذى يهدّد السلام في العالم ليس، حسب رأيه، القنبلة الذريّة أو الصواريخ المنتشرة في أوروبا أو التسابق على التسليح والجوع، بل الذي يهدد سلام العالم أولًا هي المقاومة الفلسطينية وحركات التحرّر الوطنيّ في العالم. وأنّه قد يأتي يوم يغلق فيه العرب حنفية البترول على أوروبا الغربية، وللأسف فإن كثيرًا من الصَحَفيّين فقدوا الإحساس بالحقيقة وأنّ ما يكتبونه عن البلاد العربيّة لا يتفق مع مبدأ احترام الحقيقة[24].

الجدلية السادسة: الإعلام وطمس الهوية الإسلاميّة بتغييب اللغة العربيّة:

لم تسلم اللّغة العربيّة من الحرب الضّروس التي شنّها الغرب على الحضارة الإسلامية من أجل تقويضها والقضاء على هويّتها، فكان للإعلام النّصيب الأوفر في تهميشها عبر الإعلانات التي صارت تكتسح الفضاءات. هذه الإعلانات - نتاج الحضارة الرأسماليّة- قد توفّرت على جاذبيّة كبيرة من شأنها توفير الرّبح الكبير لأصحابها. منافذ خبيثة تسلّل منها الغرب لبثّ ثقافته؛ فرغم الاختلاف الكبير والبون الشاسع بين الحضارتين: الغربيّة والإسلاميّة إلّا أنّ الإعلانات قد وصلت المجتمعات الإسلاميّة وتغلغلت فيها وسرت في جسدها دون مراعاة لخصوصيّتها ولا لقيمها، وتكاد لا تخلو وسيلة إعلاميّة من نشر هذه الإعلانات التي تروّج لمنتجات معيّنة تجذب الأطفال والشّباب وتجعلهم يقلّدون حركات القائمين عليها من

[23] يُنظَر: الشيخ، أحمد، المثقفون العرب والغرب، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط1، 2000م، صفحة 158.
[24] يُنظَر: الشيخ، أحمد، المثقفون العرب والغرب، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط1، 2000م، صفحة 160.

ممثّلين أو مغنّين مشهورين، ويكرّرون جملًا بعيدة كلّ البعد عن اللّغة العربيّة الفصحى، ويأتون بعبارات مستوردة تحمل في كثير منها ما ينافي الأخلاق ويخلّ بها.

الإعلان نشاط يقدِّم رسائل مرئيّة ومسموعة لأفراد المجتمع، لإغرائهم لشراء سلعة أو الحصول على خدمة مقابل أجر مدفوع وهو وسيلة ناجحة لشدّ انتباه المتلقّي ودفعه للمطالبة بها. والملاحظ أنّ الإعلام قد توجّه إلى استعمال اللّغة العامّيّة بحجّة أنّها سلسة وسهلة ويمكنها التّبليغ والوصول للمتقبّل. وأصبح لا يتوانى عن استعمالها في موادّه المقدّمة حتّى تتعوّد عليها الأذن وتستسيغها الذّائقة. وبدل أن ترتقي هذه الإعلانات بلغة النّاس التي دبّ فيها الوهن والضّعف بأن تستعمل عبارات صحيحة فصيحة نجدها تعتمد لغة ركيكة بل هي تعمد إلى نشر اللّغة العامّيّة وبعبارات لا يراعى فيها ذوق النّاس ولا تحترم فيه عقولهم وخصوصيّة حضارتهم. هكذا هو النّظام الرأسمالي لا يحرّك ساكنًا إلّا ضامنًا تحقيق الرّبح والمنفعة يعمل بدهاء ومكر، ويوظّف هذه الوسيلة ليرمي "عصافير كثيرة بحجر واحد"، فهو يروّج لمنتجاته ويفتح لها الأسواق ويكبّل الأمّة بحبال التّبعيّة له لتكون مستهلكة لها وغير منتجة ثمّ يروّج للّغة العامّيّة واللّغات الأخرى ليقضي على لغتها العربيّة ويطمس معالم هويّتها لتذوب في عالمه هو وتحتذي حذوه .... وبذلك يكون قد أجهز عليها وتأكّد من عدم عودتها وعملها لاسترجاع مجدها المسلوب، ويضمن لنفسه البقاء والسّيادة والقيادة عبر المسلسلات المترجمة، والتي أصبحت بمثابة سلسلة من حديد تكبّل النّاس فيصعب عليهم التّحرّر من وثاقها.. مسلسلات تتنافس القنواتُ الفضائيّةُ والتّلفزية على الفوز ببثّها حصريّا، فتقدّمها بلغة عامّية بعد أن كانت اللّغة العربيّة هي لغة التّرجمة. فإمعانًا في إقصائها وإبعادها عن حياة المسلمين تروّج هذه المسلسلات، فتسلب خاصيّة هذه اللّغة المميّزة لها- جامعة موحّدة للأمّة الإسلاميّة- لتوضع مكانها لغات مفرّقة مشتّتة تثبّت الحواجز والحدود وتجعل الأمّة الواحدة أممًا متفرّقة متعدّدة تنفرّد كلّ واحدة منها بلغتها وتراثها الثّقافيّ والحضاريّ. وهذا إضافة إلى برامج الأطفال التي عجّت بالمفردات العاميّة وبِلُغات دخيلة وبترجمة ركيكة تحفر في الذّاكرة فتصنع أجيالا منبتّة لا تفهم لغتها، تائهة لا تعرف لهويّتها عنوانًا[25].

عرض النتائج:

بعد متابعة هذه الجدليّات نخرج بنتيجة تقريبيّة، وهي أنّ الحركة الاستعرابيّة الجديدة في واقعها الحاليّ على مختلف مستوياتها - مزيج من تصوّرات مختلفة أثّرت إيجابًا أو سلبًا في طريقة تلقّي الثقافة الإسلامية وإعادة تشكيل الأفكار من

[25] يُنظَر: الصّامت، زينة، استهداف اللّغة العربيّة ضرب للعقيدة الإسلاميّة، الوطن ©، تاريخ النشر : 20/ 2/ 2017، الرابط: https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/429520.html .

خلال عملية التلاقح الثقافي بين الشعوب، لكن من المؤسف عمومًا أنّه رغم طروء بعض التحولات الإيجابية، وحضور الأطروحات الأكثر اعتدالاً وحيادية في تناول الشرق والعرب والإسلام، فإنّ هذا لا يعني اندثار المضامين التقليدية، بل لا زال لها رواج - لا سيما بعد (١١) سبتمبر، ولا زالت تلوث الفضاء الأكاديمي والإعلامي على حد سواء بتصوّرات متطرّفة، مجترّة من أزمنة الاحتلال. وكان للرغبات السياسية الإمبرياليّة لدى الإدارة الأمريكيّة تأثير كبير في تسويق الرؤى المتطرفة، لتبرير الدعم المطلق للاحتلال الصهيونيّ، وسعياً لمكافحة تقدّم الحركة الإسلاميّة في العالم العربي»[26].

وكما رأينا كان للاستعراب جذورًا عميقة في التاريخ، ووظيفة إيجابية في تلّقي الحرف القرآني رغبة في تلقّي النصوص الدينيّة وفهمها، وذلك حينما كانت القوة بيد العرب، لكنّ الاستعراب لم يصل إلى غايته المنشودة في العصر الحديث إذ بقيت الصورة المنقولة عن العرب إلى الغرب مشوشة، غير واضحة أو قاتمة في غالب الحالات، وباتت للأسف مقولبة في قوالب برّاقة خدّاعة تدّعي اتّباع المناهج العلمية، كما رأينا في المنهج الفيلولوجي والمنهج الدلاليّ التأويليّ، وفي الدراسات الأركيولوجيّة واللسانيّة، وهي في الحقيقة تخفي خلفها غايات لا تحمد عواقبها، غير أنّنا، من وجهة أخرى، يمكننا أن نبصر جانبًا إيجابيًا يتجلّى في الجدل الفكريّ الناتج عن مواجهة الطرف الآخر بالحجة والبرهان والإقناع، ما يخلق تفاعلًا يرفض الاستسلام لوجهات نظر مفروضة من جانب واحد. وهذه سمة مميزة من سمات العصر، الانفتاح على الرأي الآخر والتعارف والتواصل.

وذات الشيء ينطبق على المجال الإعلاميّ؛ وهذه الحركة الجدليّة بين الأنا الآخر، وبين اللغة والدين تفرض على إنسان القرن الحادي والعشرين في أيّ مكان في العالم ألّا يستسلم لقياد الفِكَر من غير إعمال للعقل وروّية وتبصّر في تعقّب آثار الحقيقة.

الخاتمة:

وفي منتهى البحث ننوّه إلى أنّ هذه الحركة الاستعرابيّة قوبلت بحركة مضادّة سُمِّيت بالحركة الاستغرابيّة على يد حسن حنفي ونصر حامد أبي زيد ومحمد أركون من أجل معرفة الآخر الغربيّ، ومن أجل إعادة النظر في منهجيّة قراءة النصّ الدينيّ، لكنّها محاولات تقلّد الأطروحات الغربية وتستكمل ما بدأت به الحركات المعادية للإسلام في حين بقيت

[26] الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ، ص98.

الجهود الوضّاءة في هذا المجال جهودًا فردية ضعيفة، لا تتمتّع بالدعم اللوجستيّ والإعلاميّ والمعنويّ الذي يمكّن هذا الفريق من فرض التصوّرات المشرقة عن لغتنا ودِيننا، ما يتطلّب من الجميع نهضة فكريّة في رحاب هذا المجال.

المصادروالمراجع:

- أركون، محمد، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب-لافوميك، الجزائر، سنة 1993م.

- الأوراغي، محمد، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

- حامدي، صدام، أسس بناء المنهج النقدي عند أنور الجندي كتاب "أخطاء المنهج الغربي الوافد" نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية والأدب العربي، السنة 2016-2015.

- حمداوي، جميل، الاستشراق والاستمزاغ والاستعراب والاستغراب (مقاربة مفاهيمية)، مجلة دراسات استشراقية، العدد التاسع عشر، المغرب، ٢٠١٩م.

- سالم، نجلاء رأفت، إشكالية ترجمة معاني سورة طه بين ريفلين وروبين، دراسة دلالية، رسالة المشرق، مجلد 29، سبتمبر، 2014.

- الشيخ، أحمد، المثقفون العرب والغرب، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط1، عام 2000م.

- الصّامت، زينة، استهداف اللّغة العربيّة ضرب للعقيدة الإسلاميّة، الوطن ©، تاريخ النشر : 20/ 2/ 2017، الرابط: https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/429520.html

- فيلالي، مريم، النقد الإسلامي لتوظيف المناهج الغربية في النص الديني المقدس –القرآن الكريم- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة- مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان.

- ماضي، نوال، *حركة الاستعراب وأبعاد الاستثمار في اللغة العربية*، قراءة في تجارب عالمية رائدة ، جامعة جيجل الجزائر، ورقة بحثية مقدّمة للمشاركة في المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية (الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي، دبي، 2014م.

- مثكال، بشرى كاظم، لسانيات قرآنية معاصرة في ضوء المناهج اللسانية، مجلة الكلية الإسلامية، العدد٧٠، الجزء: ١.

- محمد علواش، مناهج تحليل الخطاب القرآني في الفكر العربي المعاصر، تقرير عن رسالة دكتوراه تحت إشراف د. محمد خروبات، السنة الدراسية 2012-2011م، بموقع الألوكة، بتاريخ 2016/5/31م، على الرابط https://www.alukah.net/sharia/0/103789/ .

- محمدي، بركات رياض، مناهج النقد الأدبي الحديث وإشكاليات تفسير القرآن، تحت إشراف عفت محمد الشرقاوي وعاطف جوده نصر، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، سنة 2011م.

- الوهيبي، عبد الله، حول الاستشراق الجديد مقدّمات أولية، مركز البحوث والدراسات، البيان (177)، ط١، الرياض، ١٤٣٥هـ